تأويل النّص الديني بين العقل والذوق

Interpretation of the religious text between reason and taste

هواري حمادي*
houari.hammadi@univ-mascra.dz

تاريخ الإرسال: 17-03-2020، القبول: 16-05-2020، النشر: 29-06-2020.

ملخص:

الهدف من طرح موضوع تأويل النص الديني بين العقل والذوق يكمن في بيان أن هناك تقاربا في تصورات وآليات أهل العقل وأهل الذوق في التعامل مع النص الديني، رغم الخلاف الظاهر والجلي بينهما في قراءته من حيث معانيه وكيفية تطبيق التأويل في فهمه.

ومن النتائج التي توصلنا إليها أن التيارين العقلي والذوقي، يعارضان أهل الرسوم ويعبران عن تيارين فلسفيين ظهرا استجابة لظروف سياسية واجتماعية وثقافية، يمكن الاستفادة منهما في بناء فكر عقلاني وتنويري حول الإسلام يواكب تحديات العولمة ولاسيما عندما يجعل النص متعدد الدلالات والأبعاد.

كلمات مفتاحية: تأويل، نص، عقل، ذوق، دين.

* أستاذ بجامعة معسكر-الجزائر.

Abstract:
The aim of raising the topic of interpretation of the religious text between reason and taste lies in a statement that there is a convergence in the perceptions and mechanisms of the people of reason and taste people in dealing with the religious text, despite the apparent and clear difference between them in reading it in terms of its meanings and how to apply interpretation in its understanding.
One of our results is that the mental and gustatory currents oppose the people of the cartoons and express two philosophical currents that appeared in response to political, social and cultural conditions, which can be used to build rational and enlightening thought about Islam that accompanies the challenges of globalization, especially when the text makes multidimensional and dimensions.
Keywords: interpretation, text, Mind, Taste, Religion.

مقدمة:

إن العودة إلى مسألة قراءة النص الديني و فهم التراث ككل في مختلف مراحل الفكر الإسلامي ولاسيما في الأبحاث الكلامية والفلسفية والصوفية، يجعلنا ندرك وجود إشكالية المنهج أو الاختلاف في كيفية وأداة قراءته بين علماء الدين والفلاسفة بأطيافهم المختلفة، فقد تبلور الاختلاف في كيفية و أدوات فهم النصوص الدينية في الإسلام منذ الفترة الكلاسيكية، بين الفقهاء الذين أكدوا على أهمية إن لم نقل أحادية التفسير والبيان، والفلاسفة بألوانهم المختلفة الذي أكدوا على التأويل ولاسيما فيما عرف بالعرفان والبرهان.

فالاختلاف في فهم التراث ولاسيما نصوصه المحورية وعلى رأسها- القرآن الكريم-، ظهر بوضوح عند الفلاسفة رغم اشتراكهم في تجاوز التفسير إلى نصرة التأويل، كما يظهر

على وجه الخصوص بين أنصار العقل من الفلاسفة والمتكلمين وأنصار الذوق من المتصوفة، وبالتالي أهمية بحثنا تكمن في إدراك طبيعة هذا الاختلاف في فهم النص الديني بين منهجي العقل والذوق، من حيث منطلقاته الكبرى وآلياته للاستفادة من قراءات وتأويلات تبلورت في أبحاث المتكلمين والمتصوفة حول التراث والنص الديني في الإسلام في فهم تراثنا الفلسفي القديم، ومن اجل فهم الفكر فلسفي معاصر ظهر عند الكثير من المفكرين وعلى رأسهم – نصر حامد أبو زيد– الذي ينهل من التراث المعتزلي العقلاني والتراث الصوفي –بن عربي– في الوقت نفسه، وهو ما يبين أن العلاقة بين المنهجين تثير إشكالا ومجالا للبحث .

ينطلق هذا الإشكال، من الاختلاف والتعارض بين المنهجين العقلاني والذوقي في قراءة النص الديني أو إلى أي مدى يمكن القول بالتباعد بين قراءات أهل العقل (المتكلمين والفلاسفة) وقراءات أهل الذوق (المتصوفة) للنص الديني وبالخصوص القرآن الكريم، بما أنهما يشتركان في تجاوز التفسير والبيان وينتصران للتأويل ؟

إن البحث في هذا الإشكال يجعلنا نسعى إلى بحث فكرة تقارب المنهجين بالدرجة الأولى على الرغم من اختلافهما، وذلك بالمقارنة بين تأويلين أو منهجين الأول عقلي برهاني والثاني قلبي عرفاني بحيث أن كلاهما يجعلنا نصل إلى نتيجة هامة وهي أنهما يؤسسان للانفتاح والتعدد في المعنى، وللاختلاف والحوار، ...وغير ذلك من القيم والأفكار الإيجابية التي جعلت الفكر الفلسفي والتنويري المعاصر يقبل على قراءة إن لم نقل تبني المنهجين في مواجهة تحديات العصر والعولمة بعيدا عن الاختلاف بينهما، وبالتالي سنحاول المقارنة

الدقيقة بين المنهجين بالتركيز على أوجه التشابه والاختلاف والتداخل فيما بينهما، حسب النقاط التالية:

1- إشكالية قراءة النص الديني في الإسلام .

2- التأويل عند أصحاب العقل.

3- التأويل عند أصحاب الذوق.

4- التأويل بين العقل والذوق.

5- أبعاد ونتائج العلاقة بين العقل والذوق في فهم النص الديني.

1- إشكالية قراءة النص الديني في الإسلام :

أثيرت إشكالية التأويل منذ فجر التفكير الكلاسيكي الإسلامي، وتبلورت في البداية في مجال الاختلاف حول قراءة النص الديني، الذي بدأ في البداية من الاختلاف بين دعاة التفسير وأنصار التأويل حول المنهج الأنسب لقراءة النص الديني، والذي تدخل في تحديده عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية عجلت بمعركة التفسير والتأويل، أشار إليها نصر حامد أبو زيد قائلا: "إذا كان مصطلح التأويل في الفكر الديني الرسمي قد تحول إلى مصطلح مكروه لحساب مصطلح التفسير فإن وراء مثل هذا التحويل محاولة مصادرة كل اتجاهات الفكر الديني المعارضة سواء على مستوى تشكل التراث أم على مستوى الجدل الراهن في الثقافة." (1) هنا يتبين وجود اتجاهات متنوعة في قراءة النص الديني، تجلت في البداية في الاختلاف

بين أهل التفسير الرافضين للتأويل وبين أنصاره المدافعين عنه، والذي نتج عنه إشكالية في قراءة النص الديني في الإسلام تجلت في تفسيرات وتأويلات.

ما يهمنا في مقالنا هذا، هو ليس البحث في الاختلاف بين التفسير والتأويل في الإسلام ولكن الاختلاف بين التأويلات ذاتها، فإن كانت حسب تصور أبو زيد قد كانت كلها ضحية الانتصار للتفسير وتهميش أو إقصاء التأويل، فلماذا اختلفت في مفهوم التأويل وأدواته؟ وهل هذا الاختلاف يخفي تقاربا بين التيارات المدافعة عن التأويل بلغة علي حرب ؟

فأهل التأويل في الإسلام أنواع وأصناف، أشار إليهم ابن رشد في كتاب "فصل المقال"، قائلا: "الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف: صنف –أ– هو ليس من أهل التأويل أصلا، وهم الخطابيون، الذين هم الجمهور الغالب و ذلك أنه ليس يوجد احد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق.وصنف هو من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة.وصنف هو من أهل التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة، أعني صناعة الحكمة" (2) وبالتالي يطرح التأويل كإشكالية كبرى في قراءة النص الديني من زوايا مختلفة، ما يهمنا فيها التنوع في التأويلات التي يثيرها ابن رشد حسب أهل التأويلات بأصنافهم المختلفة، إذ يرى أن من الناس هم من ليسوا أهلا للتأويل وهم الخطابيون الذين لا جدوى من إقحامهم في فهم النص الديني والترغيب والترهيب كافي في حقهم، أما الجدليون فهم أهل التأويل الكلامي ويمثلون التأويل لدى علماء الكلام الذين يعتمدون الجدل والافحام مما يجعل تأويلهم تأويلا حجاجيا من أجل الدفاع عن العقيدة ونصرة فرقة من الفرق، و الأجدر بالتأويل في نظر ابن رشد هم البرهانيون لأنهم أهل التأويل اليقيني والعقلي وهم الفلاسفة والحكماء، وبالتالي فقد ذكر "الشارح الأكبر" نوعان من المؤولة للنص الديني وهما الجدليون والبرهانيون ولكن أليس هذين التيارين من أهل العقل، فلماذا

التفريق بينهما ؟ ولماذا لم يذكر فيلسوف قرطبة أهل الذوق أو المتصوفة أليس من المؤولين للنص ألا يوجد جمهور لهم ؟ تلك الأسئلة هي التي تدفعنا إلى إثارة التأويل عند رواده العقليين والذوقيين من زوايا مختلفة ومتعددة.

2- التأويل عند أصحاب العقل:

إن الحديث عن التأويل عند أهل العقل في الفكر الإسلامي، حمل رايته رواد "التأويل الكلامي" وعلى رأسهم المعتزلة، ثم استمر فيما بعد مع "التأويل الفلسفي" الذي وجد ضالته في العقلانية الرشدية، فكلا التأويلين لعبا دورا هاما في التأسيس للتأويل العقلي وبلورته والدفاع عنه.

2-1: التأويل الكلامي:

ارتبط التأويل العقلي في البداية بعلم الكلام، و "هو العلم بما تثبت به العقائد الإسلامية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها. ويرادفه علم الأصول وعلم التوحيد .ويسمى اللاهوت عند النصارى"(3)، لأن علم الكلام دفاع عن العقيدة بالعقل، محور اهتمامه "كلام الله" أو القرآن الكريم، حيث سعى إلى عقلنة معانيه والتي لا تتحقق إلا عن طريق التأويل والبحث في المجاز فيه وقراءة المحكم والمتشابه... من أجل عقلنة العقائد بالدرجة الأولى للرد على المخالفين للتوحيد خاصة.

وأهم من قام بعقلنة العقائد في إطار التأويل الكلامي، هم المعتزلة الذين يمثلون فرقة كلامية إسلامية ظهرت بالبصرة في أواخر الدولة الأموية بناء على مسألة مرتكب الكبيرة، ينسب تأسيسها إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري بعد اختلافه معه

حول مسألة مرتكب الكبيرة. يطلق عليهم أهل العدل والتوحيد، وتفهم كل أفكارهم في إطار أصولهم الخمسة: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،التي ستكون منطلقا للتأويل وعقلنة النص.

فالتأويل يفهم عند المعتزلة في إطار الأصول الخمسة، فقد ورد في كتاب المغني أن القرآن الكريم "لا نعلم صحة دلالته إلا بعد العلم بالتوحيد والعدل" (4) أي على صاحب التأويل أن يكون عالما بالأصول الخمسة ومحورها العدل والتوحيد، الذين يفهم المعتزلة النص القرآني في إطارهما، إضافة إلى ذلك استخدم أهل الاعتزال التأويل في إطار التعامل مع المحكم والمتشابه الذي أسس لصلب الاختلاف بين الفرق الدينية في قراءة النص القرآني، بحيث لجأ بعضهم إلى "تأويل النصوص التي يتفق ظاهرها مع ما يريد تفسيره للآية المتشابهة، يعمد إلى تأويلها والبقية ردها إلى محكم وحملها عليها"(5).

يعتبر المعتزلة أهم الفرق الكلامية التي اعتمدت التأويل ومارسته في إطار المجاز والمحكم والمتشابه منذ بواكير التفكير الإسلامي، و "منذ فترة باكرة جدا ارتبط تأويل القرآن بالخلاف حول المحكم والمتشابه من جهة وبالخلافات السياسية والعقائدية من جهة أخرى" (6) حيث تأولوا الآيات مختلف الآيات المتشابهات ولاسيما التي تفيد التجسيم والتشبيه لغاية التوحيد والتنزيه وعملوا على ردها إلى محكم في إطار أصولهم الخمسة وعلى رأسها: التوحيد والعدل، وجاءوا للرد على تلك الفرق التي حملت الألفاظ الدالة على الصفات والأفعال على ظاهرها كالحشوية والمجسمة والمشبهة، وبالتالي يكون التأويل عند المعتزلة مرتبطا بالعقل حسب طريقتهم في الاستدلال على العقائد، التي تقوم على الثقة المطلقة بالعقل "فكل مسألة

يعرضونها على العقل، فما قبله أقروه وما لم يقبله رفضوه" (7) ، وفي إطاره يتم ممارسة التأويل دون حدود بالانطلاق من الأصول والخمسة والبحث في المحكم والمتشابه والمجاز في النص الديني في الإسلامي، ولكن تبقى غايتهم القصوى في التأويل هي الدفاع عن صحة العقائد والرد على الفرق وهو ما يتجاوزه التأويل الفلسفي .

2-2: التأويل الفلسفي:

قام التأويل الفلسفي في الإسلام على"تحويل النص القرآني إلى خطاب فلسفي يستجيب للمقولات الفلسفية التي يعتنقها هؤلاء الفلاسفة...أما ما اهتموا به من آيات فله صلة وثيقة بالعلم الإلهي الذي يبحث في الموجود بما هو موجود، وفي المبادئ الكلية للعلوم، وفي الموجودات المنتزعة حسب عبارة الفارابي" (8) فتفسيرات الفلاسفة للقرآن الكريم تربطه بالبحث في العلة الأولى للوجود، وتسلسل العلل، وأقسام النفس، وقواعد المنطق الأرسطي، ولا تتعلق بقضايا التشريع بل بقضايا العقيدة بالدرجة الأولى، وتقوم على فهم الآيات أو توظيفها وفق مذهب الفيلسوف وأفكاره في أغلب الأحيان، ومن بينهم الكندي (ت873م) وابن سينا (1036م)، الذين قاما بتفسير بعض السور القصيرة وفق أفكارهم حول العلم الإلهي وأقسام النفس، و فيلسوف قرطبة ابن رشد (ت1198م) الذي فهم مختلف السور القرآنية في إطار مسألة التوفيق بين العقل والنقل، مؤكدا على أهمية التأويل في فهم النص، الذي اعتبره من مهام الراسخين في العلم وهم الفلاسفة الذين وحدهم الذين يعرفون معنى المتشابه من الآيات.

من خلال عرض التأويل عند أهل العقل ندرك أنه يجمع بين التأويل الكلامي والتأويل الفلسفي، ويرتبط بكل من أعطوا الأولوية للقرائن العقلية في فهم النصوص الدينية الإسلامية

بمختلف أنواعها، وهو ما لا يقبله أهل التصوف الذين يرون أن المدلولات في النصوص لا تدرك بالعقل وإنما بالأثر والذوق.

3- التأويل عند أصحاب الذوق (المتصوفة):

يقوم التأويل عند المتصوفة على القلب والذوق الذي يتجاوز ظاهر النصوص إلى باطنها، لأن الباطن هو ما يحمل المعنى الحقيقي الذي يتوافق مع العقيدة والشريعة كما يفهمها الشيخ ويتبعها المريد، حيث يقوم على الانطلاق من التجربة الخاصة والذاتية، للـ"مؤول الصوفي وما يعانيه من مكابدة ومعاناة ذاتية تجعله يتجاوز حدود المعنى الظاهر" (9) أي أن الباطن هو الحقيقة في النص والتجربة الصوفية على حد سواء وفي وقت واحد، لأن من يدرك الباطن هم ليسوا ناس عاديين ولكن هم من بلغ مرتبة الأولياء والعارفين، وهم من طهر النفس من أدران البدن ومن الصفات المذمومة بالتخلي عن الرذائل، وهذا التطهير يقترن من ناحية أخرى بالتحلي بالفضائل التي تسمع بتزكية النفس والتي تمكنها من فهم ذوقي للنص، وبموجب ذلك يؤول الصوفية النصوص الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم والأحاديث النبوية بالذوق والأثر الناتج عن التخلي والتخلي والتجلي.

من أهم رواد هذا الاتجاه الصوفي، الشيخ محي الدين ابن عربي الذي يقرأ النص الديني قرآن وسنة، كما هو وارد في عنده في مختلف كتبه وعلى رأسها كتاب "الفتوحات المكية" في إطار تطهير النفس، يقول بن عربي في هذا المقام، حين يعمل على فهم الآية 9 من سورة الشمس " قد أفلح من زكاها"، "يعني النفس التي سواها يريد قد أفلح من طهرها بامتثال أوامر الله" (10) فالمعنى المراد أن المفلح هو من قام بتزكية النفس بالطهارة التي تتخذ

معنى خاصا عند الصوفية يرتبط بطهارة الباطن المقترن بالخضوع لأوامر الخالق واجتناب نواهيه، إذن يقرأ ابن عربي النص الديني وعلى رأسه القرآن الكريم "حسب ثنائية الظاهر والباطن، حين يبدي لكل آية معنيين: الأول ظاهر على طريقة الفقهاء والثاني باطني على طريق أهل الإشراق والعرفان،"(11) فالمنهج الذوقي منهج عرفاني يتجاوز البيان والبرهان في درك الحقائق، ومنهج مرتبط بالخاصة وخاصة الخاصة من الأولياء والعارفين يقوم على فهم الأسرار واستكناه أعماق الحقائق التي تدرك حسب أثر النصوص على القلب، وبالتالي يمكن القول أن التأويل الصوفي من أرقى أنواع التأويل باعتباره كثيرا ما يبدأ بالبيان ثم يمر بالبرهان لينتهي إلى العرفان.

4- التأويل بين العقل والذوق:

في مجال قراءة هذا العنصر، قد تظهر لنا تصورات التشابه والتقارب بين المنهجين العقلي والذوقي كما تظهر تصورات مقابلة حول الاختلاف بين المنهجين في تأويل النص، وهي ما سنسعى إلى تحليلها حسب ما يلي:

4-1: التشابه والتقارب بين المنهجين:

عندما نقارن بين تصوري أهل العقل والذوق، نصل إلا أنهما قد يتقاربان ويتفقان في عدة نقاط، جعلت بعض المفكرين يؤكدون على أن هناك تقارب بين العرفان والبرهان وليس اختلاف أو تعارض، وعلى رأسهم نصر حامد أبو زيد الذي اهتم بالتأويل عند المعتزلة والتأويل عند ابن عربي ...في عدة كتب يتجلى فيها التقارب بين الذوق والعقل، وعلى

رأسها ما يرويه في كتابه "هكذا تكلم ابن عربي" حول قصة "حي بن يقظان" في عنوان خاص وسمه: "البرهان والعرفان لقاء لا صدام" حيث بين فيه أن القصة تحمل عدة نقاط تقارب بين العقل والذوق وتكمن في بعدين "الأول ... في طبيعة الأدوات المعرفية التي أوصلت بطل القصة إلى إدراك الحقيقة، بل ومعاينتها بلا معرفة مسبقة دينية أو غير دينية . أما البعد الثاني وهو بعد عدم التعارض بين الشريعة والحقيقة وهو بعد نعلم أن ابن رشد أفرد له رسالته المعروفة بفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال"(12)، حيث جمع "حي بن يقظان" بين يقظة العقل والروح وبين العزلة والتأمل...كما عبر عن عدم التعارض بين الشريعة والحقيقة الذي يمكن اعتباره الهدف المشترك والأسمى للتأويلات باختلاف، وبالتالي هناك تقارب وتشابه بين العقل والذوق في إدراك الحقيقة بالعقل والذوق لأنها يشتركان في العديد من الميزات والخصائص نفصلها في النقاط التالية:

1- في كونهما يعبران عن فكرة الوساطة في إيجاد المعنى، فبناءا على تصور فيلسوف التأويل غادمير: الذي يبين أنه في عملية التأويل " هناك دوما وساطة تضمن التواصل بين نظرتنا اللغوية للعالم ولغة النص" (13)، يظهر في التأويل الكلامي و الصوفي على حد سواء وجود واسطة في انتاج المعنى بين صاحب النص والملتقي باعتبارهما نوعين من التأويل، لأن هذا الأخير سواء أكان عقليا أو ذوقيا يعبر عن فكرة دور الوسيط في انتاج معنى جديد للنص بعيدا عن فكرة المطابقة التي قامت عليها التفسيرات الفقهية المؤسسة لأحادية المعنى أو التعبير الواحد الذي يريده صاحب النص.

2- في كونهما يعبران عن استجابة لمعطيات سياسية واجتماعية قامت على معارضة آراء الفقهاء ولاسيما تلك التي تدعم السلاطين والبلاط، حيث نشأ المنهجين بصورة أخص في العصر الأموي الذي ساد فيها الفساد والبذخ...الذي أدى إلى ظهور قراءة متمردة على الوضع حمل رايتها كل من الفلاسفة والمتصوفة، كما أن المنهجين يتشربان مختلف تصوراتهما وآليتهما في القراءة من أبحاث الفلاسفة كما يظهر في تأثرهما بفلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو وأفلوطين، وبالمنطق اليوناني الذي يعكس مفارقة ويبرر تكامل المنهجين العقلي والذوقي حين يجمع بينه وبين التصوف كما يظهر في تجربة أبو حامد الغزالي ماضيا، لأنه جمع بين البرهان (المنطق) والعرفان (التجربة الصوفية)، وكما يظهر عند كبار الفلاسفة راهنا "طه عبد الرحمن" في القول بالعقل المؤيد.

3- في كونهما يجعلان ادراكا المعنى وقفا على الخاصة وخاصة الخاصة، بعيدا عن الجمهور والعامة الذين يجب إبعاد التأويل عنهم، فالتأويل عند بن رشد من اختصاص الراسخين في العلم الذي يصلون إلى درجة التأويل البرهاني ويتجاوزون مرتبة الجمهور والخطابيون، أما عند بن عربي فيظل وقفا على الأولياء والعارفين، وبالتالي كل من المنهجين العقلي والذوقي يقومان على أن هناك أهلا للتأويل.

4- في كونهما يعارضان أهل البيان من الفقهاء والأصوليين والمحدثين "الذين كانوا ينفرون عموما من التعمق المعرفي في أسرار النص القرآني، ذلك أن نفورهم من المعتزلة والفلاسفة لم يكن أكثر من نفورهم من المتصوفة، خاصة من هؤلاء الذين يتفوهون بعبارات غريبة أو يقيمون زهدهم على أساس عرفاني" (14)، حيث يسعى كل من أهل النظر

والذوق إلى بيان وجود تفسير آخر يتجاوز القراءة الفقهية التي تقوم على الظاهر، إلى قراءات أخرى تقوم على الباطن هي ما تعبر عن المعنى الحقيقي للنص ولاسيما في الآيات المتشابهات وتلك التي تعبر عن التوحيد والعقائد.

5- في اعتبار أن للنص ظاهر وباطن وهذا الأخير (الباطن) هو الحقيقة، حيث أكد كل من أهل العقل والذوق أن للنص معنيين: ظاهري يدرك بالتفسير ويتجلى في الآيات المحكمات بالدرجة الأولى، باطني يدرك بالتأويل تأملا أو ذوقا.

6- في كونهما يجعلان التأويل دفاعا عن عقيدة التوحيد في الإسلام، ولاسيما في قراءة المتشابه، إذ رد أصحاب البرهان على المجسمة والمشبهة والفرق الضالة الأخرى وبلوغ ذروة التوحيد عن طريق تنزيه الخالق عن ما سواه، ورد الصوفية على أهل الظاهر من أجل بلوغ ذروة التوحيد عن طريق الفناء في المحبوب والعشق الإلاهي وحده دون ما سواه.

7- في كونهما ينطلقان من أولوية العقل والروح على الجسد، لأن كلا الخطابين يعليان من شأن العقل والروح على الجسد والمادة، ويعبرهما طريقا لإدراك الحقيقة وحقيقة الحقائق (البارئ تعالى).

8- في أنهما يؤسسان لرؤى فلسفية تقوم على طرح مسائل ميتافزيقية وفكرية تتجاوز مستوى الدين والتدين وتنتهك حدود الحدود إلى البحث دون قيود في مسائل تتعلق بالوجود والقيم والنفس والمصير.

9- في أنهما يؤسسان لتطبيق أدوات الفهم في قراءة النصوص المقدسة والتراث الإسلامي ككل، فعندما نعود إلى رؤى المفكرين المعاصرين وعلى رأسهم نصر حامد أبو زيد نجده يريد

رد الاعتبار للتأويل كلاميا عقليا أو صوفيا قلبيا لأن التاريخ يبين لنا هيمنة وانتصار التفسير في مختلف العصور وفي قراءة النص الديني خصوصا.

10- في أن المناهج التأويلية وعلى رأسها العقلية والذوقية تنطلق منها مختلف الخطابات الفلسفية المعاصرة الارساء لدعائم التسامح والحوار والانفتاح والاهتمام بالإنسان، لأنها تحرر النص من القراءة الأحادية والمطابقة.

4-2: التعارض و الاختلاف بين المنهجين:

مهما بدا من تقارب وتشابه بين المنهجين العقلي والذوقي في قراءة وتأويل النص، إلا أن هذا لا ينفي عدم اتفاقهما بل وتعارضهما أحيانا وهو ما يتجلى في النقاط التالية:

1- يقوم التأويل على المجاز والقرينة العقلية عند أهل العقل بينما يقوم على أثر المعاني على القلوب عند أهل التصوف، فطريقة استخراج الباطن عند أنصار البرهان تقوم على آليات لغوية كالمجاز والاستعارة. وآليات منطقية كاستخدام القياس في استخراج المعاني، بينما يقوم عند أهل العرفان على آليات ذوقية تقوم على التجافي عن الدنيا وشهواتها أو على التحلي والتخلي والتجلي .

2- في عملية التأويل يقدم أهل العقل "العقل" على كل شيء حتى على النص ذاته، بينما ينتقد أهل الذوق دوره ويركزون على القلب في القيام بعملية التأويل، كما يظهر في قصة اللقاء بين ابن رشد وابن عربي، في الحوار بين الشيخ الأكبر وقاضي قرطبة: "كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي، هل هو ما أعطاه النظر؟ قلت له نعم لا، وبين نعم و لا تطير الأرواح من مواردها والأعناق من أجسادها."(15) في هذا المقتطف يظهر نقد

المتصوفة للنظر العقلي كطريق للحقيقة واعتمادهم العرفان والذوق كمحدد لها. تعكس القصة اختلافا جليا بين العقل والذوق في بلوغ الحقائق، فالأول يرتبط بالنظر الذي أشار إليه ابن رشد في الكثير من أفكاره وفي موقفه هنا، ودافع عنه دفاعا مستميتا ضد أهل الرسوم من الفقهاء وأرباب البيان عندما جعل القياس البرهاني أقوى وأوثق الأقيسة إذا ما قورن بأقوال الخطابيين والجدليين، وهو في هذه القصة يسائل الشيخ الأكبر عن أهميته وهل هو مما أعطاه الشرع ؟ وقد لا يجد جوابا منه، نظرا لوجود اختلاف بينهما في فهم الحقائق وفي التأويل بالدرجة الأولى.

3- يقوم التأويل عند أهل العقل على أصول نظرية عقلية وفلسفية منطلقها الأشكلة وهدفها إزالة الإبهام والغموض، فهو عند المعتزلة عندما يرتبط بالآيات المتشابهات يسعى إلى توضيح معاني الآيات التي لا تنسجم في الظاهر، حيث "رأوا وجوب تأويل أمثال هذه الآيات الإشكالية تأويلا يزيل عنها الإشكال والغموض ويتفق مع التنزيه لأن الإسلام دين تنزيه و توحيد والعقل الذي يخاطبه الإسلام له حق الشرح والبت والتأويل بين الأمور التي تدخل في مفهوم التوحيد"(16)، بينما يقوم عند أهل الذوق على مبادئ عملية قلبية ذوقية منطلقها الأثر وهدفها التصفية عن طريق عمليات التخلي والتحلي والتجلي، كما يتأسس على المعرفة اللدنية التي تتجاوز العقل حيث يقول الأمير عبد القادر:-بصدد تفسير قوله تعالى في الآية 21 من سورة الأحزاب: "لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة"، هذه الآية الكريمة تلقيتها تلقيا غيبيا روحانيا، فإن الله تعالى قد عودني، أنه مهما أراد أن يأمرني، أو ينهاني، أو يبشرني، أو يحذرني، أو يعلمني علما، أو يفتيني في أمر استفتيته فيه، إلا ويأخذني

مع بقاء الرسم، ثم يلقي إلي ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردني إلي، فأرجع بالآية قرير العين، ملآن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنة لله تعالى حوالي نصف القرآن بهذا الطريق"(17).

4-3: أوجه التداخل:

عندما ندرج الخطابين الصوفي والعقلاني ضمن الخطابات الفلسفية فإننا لا نستطيع وضع خطا فاصلا بينهما في بناء قراءات فلسفية للدين تعتمد التأويل وتعطيه الأولوية على التفسير، كما أن الكثير من المتصوفة انطلق من العقل ومن تصورات عقلية ميتافزيقية ليضيف إليها العمل والممارسة، وأهم ما يعبر عن التداخل بين العقل والذوق ما يسمى بالتصوف الفلسفي وهو تصوف مصحوب بالتأمل يصل أصحابه إلى أفكار ونظريات مختلفة متعلقة بالمعرفة تتجلى فيما تسمى بالعرفان، وترتبط بالوجود تظهر في أفكار مختلفة كوحدة الوجود ...وتتعلق بالقيم كالتسامح والأنسنة... فالتصوف الفلسفي يعبر عن نمط من التصوف ينتقل من البرهان إلى الوجدان، ومن العقل إلى القلب، وإذا كان التصوف "علم وعمل" كما يقول الغزالي لابد أن ينطلق من معارف عقلية يتلقاها الصوفي بمطالعة كتب القوم ويتوجها بمعارف ذوقية قلبية التي لا يمكن أن تنطلق من العدم، وحتى عند الأمير عبد القادر في الفترة الحديثة يمكن أن ندرك وجود نوعا من التصوف الفلسفي الذي يجمع بين البرهان والعرفان ولا يكتفي بالقلب والذوق فقط، "إذ يمكن القول أنه يؤسس لتصوف فلسفي الذي يمزج من خلاله الذوق بالنظر العقلي وتتأسس من خلاله أفكار فلسفية كفكرة وحدة الوجود تأثرا بشيخه محي الدين بن عربي" (18).

5: أبعاد ونتائج العلاقة بين العقل والذوق في فهم النص الديني:

بعد البحث في طرحي أهل العقل وأهل الذوق لمسألة فهم النص الديني، ندرك أنها تنطوي على أفاق وأبعاد مختلفة وتحمل أهمية كبرى، جعلت الكثير من الفلاسفة والعلماء ولاسيما في الفترة المتأخرة ينهل من مشاربهما ويكاد لا يميز بينهما أحيانا، كما يظهر في كتابات نصر حامد أبو زيد التي يزاوج فيها اهتمامه بالمتكلمين والمتصوفة في طرح مسألة التأويل على وجه الخصوص، وهو ما تجلى على وجه الخصوص في طرح لمسألة التأويل عند كل المعتزلة والشيخ محي الدين ابن عربي.

فقد عبرت أبحاث المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة حول التأويل عن حاجة القرآن الكريم إلى الفهم عبر العصور حسب تطور الواقع ومستجداته وهي التي كانت وما تزال مستمرة إلى يومنا هذا لمواكبة التحديات الجديدة كالتطرف الديني والإسلاموفوبيا والتخلف، وباعتبار النص الديني هو النص المحوري للحضارة العربية الإسلامية، لأنها "حضارة أنبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه" (19) فلاشك أن تعامل اهل البرهان والعرفان مع النص الديني من شأنه أن يؤسس لجذور حوار الإنسان العربي والمسلم الدائم مع النص القرآني، كنص محوري للثقافة العربية الإسلامية يعتبر أسماها وأعلاها شأنا ومنزلة، سواء أكانت شعرية أم نثرية وحتى نبوية، والمصدر لعقائد وشرائع وقوانين وسلوكيات المسلمين، في الماضي والحاضر والمستقبل.

إذن الاختلاف بين المنهجين العقلي والذوقي كان وما يزال منطلقا لدعاة الحداثة اليوم والناقدين الأدبيين والفلاسفة اليوم، ومن النتائج المترتبة عنه والتي نلمسها في بحثنا ما يلي:

– الاختلاف يعكس وجود حضارة إسلامية راقية تقوم على المناظرة والحوار وتؤسس للمنهج المتعدد الطرق في مجال فهم النصوص بعيدا عن القراءة الأحادية والمغلقة، فالأسلوب العام في الحجاج في علم الكلام يتجلى في المناظرة، وتشتق في : اللغة من النظير، أو من النظر ببصيرة. واصطلاحا: هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب. (20) و المناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه.(21) عبرت عن ارتباط الأسلوب الحجاجي بلغ ذروته بين المتكلمين والمتصوفة والفقهاء، إذ عبر عن شروط وقواعد وأخلاقيات... تجد حصورا كبيرا في المنهجين العقلي والذوقي.

– الاختلاف أسس بموجبه الكثير من الفلاسفة آرائهم الحداثية والتنويرية، إذ اعتبروه منطلقا لانفتاح النص على التعدد الدلالي، كما يظهر عند نصر حامد أبو زيد الذي يستفيد من تأويل المعتزلة العقلي وتأويل بن عربي الذوقي في التأسيس لآرائه الداعية إلى الحرية ومحاربة التعصب والإيديولوجيا كما يظهر في مؤلفاته التي تزاوج إن لم نقل تجمع بين المنهجين العقلي والذوقي رغم اختلافهما.

– من خلال الاختلاف بين المنهجين أصبح مختلف دعاة الحداثة يؤسسون لأفكارهم في العقلنة والأنسنة والتسامح والحوار ومحاربة التطرف والانغلاق، وتجعله متعدد الدلالات، ف"أهم سبل مواجهة التطرف في المجتمعات الإسلامية مثلا هو القراءة الصحيحة للإسلام ولاسيما لنصوصه وفق الفهم الموضوعي والواقعي، خارج معنى المطابقة والمدلول الأحادي، وفي إطار الحوار وقبول الآخر(22) وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بفتح النص على التعدد الدلالي حتى يكون مسايرا للتحديات عن طريق التأويل بأدواته المختلفة وأهمها العقل والذوق

خاتمة:

نستنتج أن هناك تقاربا في تصورات وآليات أهل العقل وأهل الذوق في التعامل مع النص الديني، رغم الخلاف الظاهر والجلي بينهما في قراءته من حيث معانيه وكيفية تطبيق التأويل في فهمه، فكلاهما يطرحان إشكالية تعدد المعنى في النص الديني ويعبران عن انفتاحه، ويسعيان لمعارضة أهل الرسوم ليؤكدان أهمية المدلولات الباطنية التي تختفي وراء الظاهر، وعلى الرغم من اختلافهما في نصرة العقل أو القلب فكثيرا ما يخفي هذا الاختلاف اتفاقا في رفض ظروف سياسية واجتماعية تم بموجبها احتكار فهم النص الأحادي والمطابق لدى بعض العلماء، وبالتالي عبرا كل من الخطاب العقلاني والصوفي في مجال التعامل مع النص الديني عن تيار فلسفي منفتح يعارض أهل البيان من الفقهاء وأنصار الخطاب الرسمي استجابة لظروف سياسية واجتماعية وثقافية، وهو تيار ما يزال ذو صدى كبير في فهم الراهن الذي تعيشه المجتمعات العربية والإسلامية خصوصا وهو راهن لا ينفصل عن مواكبة التطورات الحاصلة على مستوى الوقائع والعلوم والتي لا تنفصل عن الخطابين العقلاني والذوقي فيما يخص التعامل مع النصوص الدينية وعلى رأسها النص الأصلي "النص القرآني".

قائمة المصادر و المراجع:

1- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان ط6، 2005، ص219.

2- ابن رشد أبو الوليد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، دار المشرق، بيروت لبنان، 1986.

3- يعقوبي محمود، معجم الفلسفة، أهم المصطلحات وأشهر الأعلام، الميزان للنشر والتوزيع الجزائر، ط2، 1998، ص 145.

4- المغني 394/16، 395، نقلا عن: نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط 7، 2005، ص 65.

5- خدمتلي صبري (1994)، العقيدة والفرق الإسلامية، دون طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص 22.

6- نصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز عند المعتزلة، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط6، 2007، ص 141.

7- اسماعيل حقي أزميريلي: علم كلام جديد، ص58، نقلا عن المرجع السابق، خدمتلي صبري (1994)، العقيدة والفرق الإسلامية، ص 100.

8- منجي لسود، إسلام الفلاسفة، 2006، ص74، 75.

9- مُحَمَّد عبد المعز، تأويل القرآن الكريم بين الصوفية والفقهاء، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص 24

10- ابن عربي محي الدين، الفتوحات المكية، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط2، 2006 .ص18.

11- حمادي هواري، النص القرآني وآليات الفهم المعاصر، أطروحة دكتورة، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2012-2013، ص 103.

12- نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي بيروت لبنان، ط3، 2006، ص 173-174.

13- هانس جورج غادمير، فلسفة التأويل، الأصول والمبادئ والأهداف، تر: مُحَمَّد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر ط 2 ، 2006. ص141.

14- نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، المرجع السابق، ص142، 143.

15- نفس المرجع، ص 166.

16- عبد الحميد خطاب (1991)، معالم في الفلسفة الإسلامية، مطبعة النخلة، ص 100.

17- الأمير عبد القادر الحسني الجزائري (2005)، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، الطبعة الأولى، تح: عبد الباقي مفتاح، مؤسسة الأمير عبد القادر، ص 105.

18- حمادي هواري، (2015) الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدادان 5 و6، ص109.

19- أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص، المرجع السابق، ص 9.

20- علي بن مُحَمَّد بن علي الشريف الحسني الجرجاني (2013)، تح: محمود رأفت الجمال، كتاب التعريفات (الطبعة الأولى)– المكتبة التوفيقية، ص 185.

21- ابن منظور جمال الدين، (2005) لسان العرب، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص 783.

22- حمادي هواري، (2015) الإسلام وظاهرة التطرف الديني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات، العدد 10 ديسمبر 2015، ص 237.